سلسلة تاريخ الأغواط دراسات وترجمات

سي أحمد ولد قادي باش أغا فرندة



الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية
سنة 1878 ميلادية

تحقيق وتقديم : الأستاذ كزواي الحاج العرابي

سلسلة تاريخ الأغواط دراسات وترجمات

سي أحمد ولد قادي باش أغا فرندة

الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية سنة 1878 ميلادية

تحقيق وتقديم : الأستاذ كزواي الحاج العرابي

الأغواط : 2018 ـ 2019 ميلادية

مقدمة محقق الكتاب

القراءة التاريخية الخاطئة تفضي لمعادلة حياة آنية، تتشابك فيها المتناقصات وتتداخل لدرجة أن تفكيك الواقع يظهر صعبا ملتبسا متداخلا، فلسفة التاريخ لها قوانين صارمة تضع أمامنا الأدوات العلمية والمناهج الموصوفة باليقين من هذه الأدوات الكتابات الأدبية والسير، وخاصة كتابة الأوائل من الجزائريين الذين مدحوا فرنسا وأثنوا عليها، بل قدسوها واعتبروها هبة الله جاءتهم من وراء البحار، الجميل في هذه الكتابات صدقها على خلاف ما يكتب اليوم من حملة ميراث فرنسا. لأن الكتبة المعاصرون تعلموا أنماط الحيل والحذق في توصيل حب فرنسا والغرب، بأشكال مبهرة ومغلقة من الصعب على المتلقي أن يفكك علاماتها اللغوية، لذلك ما كتبه محبي فرنسا الأوائل جيد، جودته أنه يمكننا من القراءة البسيطة لأديب مستلب الذات والهوية، خارج عن الوجود يعيش حالة عدم كما يقول الفلاسفة. هذه الزمرة هم كثرة بدؤوا أفرادا ثم أضحوا جماعات، هم الآن مناهج ومدارس أدبية وعلمية وسياسية قوتهم نافذة معلومة لا تخطئهم العين، موجودون في كل مكان. منذ زمن قليل كان لهم همس خافت، الآن صوتهم مرفوع ومسموع، هم السادة هم أهل المشورة والرأي السديد، من أراد أن يعرف البدايات ويستوعب المقدمات يتصفح كتاب قاموس الأدباء المغاربة مؤلفه جون دوجيون[1]، سيجد نماذج كثيرة لأدباء، كتبوا باللغة الفرنسية، يجد منهم من كان أدبه وبيانه نصرة للفرنسيين، ودعوة صريحة لتقبل النفوذ الفرنسي، اعتبروه المخلص.

DEJEUX, Jean, Dictionnaire des Auteurs maghrébins de langue française, Paris, Karthala, 1984

السؤال الذي يتبادر لمن يستقري التاريخ هو: من هم على شاكلة بن قادي صاحب الرحلة القادية، هل كان لهم أثر وموقع قدم في صناعة التاريخ الحديث والمعاصر ؟ الجواب يأتي كما يقال أبسط من البساطة، وندلل عليه بدليل الجزء حاكم على الكل في جزئيات البحث التجريبي، لو أردنا مثلا أن نتأكد مثلا أن ماء هذا البئر عذب زلال صالح للشرب، تكفينا عينة فحص وهذا ما سنبحثه حتى ندلل على صدق قولنا: يقول سي أحمد ولد قادي باش أغا فرندة: " أفلا تكن مصالح العرب الذين عددهم يشتمل على نحو الثلاثة ملايين، تستحق النظر أكثر من مصالح الأوروبيين الذين عددهم يشتمل على نحو المائتان وعشرون ألفا، وبأي وجه يحرم التماس النواب منهم للاستشارة معهم في المصالح العمومية، إن كانوا في رفقة الأخوة والمساواة كما هو الزعم." الكلام والتعداد السكاني المقدم من قبل سي قادي الغني الثري بين أهله وعشيرته، زمانه هو 1878 تاريخ كتابة ولد قادي لرحلته، 3 ملايين هو تعداد سكان الجزائر يومها، الفرنسيون بقضهم وقضيضهم هم في الجزائر يومها 220 ألفا، أي أنهم يمثلون من نسبة السكان نسبة ضئيلة ندرجها في مؤشر تاريخي عالمي هو الحرب العالمية الأولى، تسمى في كتب التاريخ الحرب العظمى الحرب في فلسفة التاريخ هي الكاشف، تكشف معادلة القوي والضعيف في الصراع البشري، هذه الحرب العالمية بدأت سنة 1814 انتهت سنة 1818. لأن هناك من أحب فرنسا من الجزائريين وهم على شاكلة بن قادي، وظفوا حربا إعلامية ونفسية لصالحها، بمقتضاها جندت فرنسا من الشباب الجزائري جنودا، ومحاربين كانوا ثقابا لحروبها، أضع أمام القارئ من الأرقام المستمدة من الأرشيف الفرنسي وهي أرقام معدلة لا حقيقية تحمل

الإنسان على التأمل والتدبر: العدد الإجمالي للمسلمين المجندين هو: 173 000 مسلم عدد يقترب من مجموع الأوروبيين الذين غزوا الجزائر هذا العدد يفصل كالآتي: القوات العاملة في الجيش كقوات نظامية عددها: 87 500 مسلم الجنود النظامين المسلمين الذين قتلوا في الجبهات عددهم: 25 000 مسلم، القوات غير النظامية من المتطوعين وممن جلبوا للجبهات من الجزائر، العدد الذي فقد منهم يقدر كالآتي: 22 000 نسمة. لما نقوم بعملية الجمع نجد العدد الإجمالي كما يلي: 47000 قتيل أنا أتكلم هنا عن مؤشر فقط، وليس عن دراسة كاملة في رحلته يكلمنا ولد قادي، ويخبرنا بمواطن اختلطت فيها دماء الجزائريين بالفرنسيين بقول: " فنحن إذا كعيال واحد، الحي منا مع الحي منكم والأموات مع بعضها، فمن ذا الذي يعرف العظام المختلطة في مقابر القتلى، بالمكسيك والإيطاليا والبروس وفي الجزاير إلا الله تعالى" نعم في هذه صدق، الله وحده يعلم كم هم القتلى، والله بعلم كذلك من كان سببا في دفعهم للالتحاق بجبهات القتال، وكيف أنهم كانوا الثقاب لحروب فرنسا الخاسرة والشهود على هزائمها، أمامي نماذج آدمية كثيرة تكفي في الدلالة، سأكتفي بشخصيتين أثرتا الأولى شخصية سي أحمد ولد قادي باش أغا فرندة صاحب الرحلة، والشخصية الثانية هو قايد من القياد، هو بن الشريف مُحَمَّد بن سي أحمد، وأبدأ بالشخصية الثانية: ولد في 17 من شهر فيفري سنة 1879 هو من أولاد سيدي أحمد، سكن هو وعائلته الهضاب العليا وسط الجزائر وبالتحديد في المنطقة المعروفة الآن بالجلفة وهي حديثة النشأة. يعتبر كأول جزائري كتب باللغة الفرنسية جده هو سي الشريف، خدم الأمير عبد القادر فكان خليفة له على أولاد نايل، بعد هزائم

الأمير واستسلامه خدم فرنسا، وكان خليفة لها وقاتل تحت رايتها. بقيت عائلته خادمة للمشروع الفرنسي، وخاصة ما تعلق بالشق العسكري والأخطر هو الثقافي، هذا الفعل أكده واقعا وفعلا، بن الشريف مُحَّد بن سي أحمد الذي نحن بصدد ذكره، درس في ثانوية العاصمة الجزائر تحصل على شهادة البكالوريا سنة 1898، ثم التحق بمدرسة عسكرية هي مدرسة القديس سير Saint-Cyr حضي برتبة ملازم. بدأ حياته العسكرية في فوج الفرسان العامل في الصحراء، وعمل بالتحديد في القوات المعروفة السبايسية spahis البعض يسميهم الصبايحية، هم جزائريون مسلمون لهم مهام أمنية وقتالية، يخلفون القوات الفرنسية الرسمية في مواجهة الأهالي والتصدي لتمردهم وثوراتهم، بعد ذلك منحته السلطات الفرنسية صفة قايد جعل حياته نصرة للمشروع الفرنسي، لم يكتفي بوظيفته قايد جعل من نفسه مثلا يحتذي به الآخرون، كان في قومه قدوة وأسوة ومثلا يضرب في الوفاء والإخلاص، لم يكتفي بالكتابة الأدبية بل جعل نفسه فداء لفرنسا من أجل ذلك تقدم الصفوف ووقف في الجبهات الأولى ونازل أعداء فرنسا، خاض معركة فرنسا ضد المسلمين المغاربة هذا حدث سنة 1908. ما اندلعت الحرب العالمية الأولى حتى تطوع مقاتلا مدافعا عن الحمى الفرنسي، ولأنه كان في الجبهة الأمامية أسرته القوات الألمانية، حمل مع الأسرى لألمانيا، ثم حمل بعد ذلك إلى سويسرا وبقي وفيا لفرنسا مخلصا. لم يهادن الألمان ما انتهت الحرب حتى عاد للجزائر، شهر ماي 1918 تمت ترقيته لرتبة نقيب capitaine وعاد لمنصبه الأول قايد لعرش أولاد سي أحمد، لم يهنأ طويلا بمنصبه القديم الجديد، مات في وباء التيفيس typhus في مدينة الجلفة سنة 1921،

مات مع أعداد هائلة من قومه منهم من مات بالمجاعة ومنهم من مات بالوباء. ما يهم هو كتابه في المدن الإسلامية المقدسة Aux villes saintes de l'Islam، هو من أدب الرحلة تكلم فيه عن رحلته لحج بيت الله الحرام، ترجمت لحياته لغرابة فعله، يستبيح رقاب أهله وناسه ويُعز عدوهم، ولما يحج يذكر رحلته رحلة الإيمان والتقوى، والله وحده العالم بخلقه. يعتبر ممن أول ما أُلف في الأدب الذي مجد الاحتلال الفرنسي، هناك نماذج كثيرة مثلوا هذا اللون الأدبي، ومن أراد أن يعرف أكثر يعود لقاموس الأدباء المغاربة كما ذكرنا آنفا. هذه توطئة تمكننا من فهم الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية، وما أراده كاتبها أذكر فقط أنني أبقيت على لغته ولم أصحح إلا الضروري منها، لأن اعتماد اللفظ العامي الذي اعتمده المؤلف في هذه الحالات يكون أبين للمعنى الذي قصده الكاتب، ولم أهتم لترجمة حياته فهو عاش ومات باش أغا، مع دلك أذكر أن مع بدايات الاحتلال الفرنسي، ظهرت في الغرب الجزائري عائلات موالية لفرنسا، وكان لها سطوة على القبائل أهمها: أولاد قادي والمؤلف منها، وأولاد صافي بن أحمد، وبنو يحيى، وأولاد سيدي الشيخ، عائلة أولاد قادي هي بطن من أسرة لبحايتية وسط قبيلة الدواير تعرف بالقبيلة المخازنية Tribu – makhzen، التي انحدر منها إسماعيل ولد قادي هذا معروف توفى سنة 1864 برتبة ملازم صبايحي، وتزعم القبيلة من بعده أخوه سي أحمد ولد قادي، الذي تقلد منصب باش – آغا فرندة وهو مؤلف الرحلة وهو حامل وسام جوقة الشرف. أما ابنه الأول علي فكان قائدا على قبيلة شلاق، وابنه الثاني الحبيب ولد قادي قايد قبيلة لحاميد، أما ابن أخيه مُحَمَّد بن إسماعيل ولد قادي فكان آغا على

قبيلة لحشم شراقة، عرفت هذه العائلة بثرائها الواسع في المنطقة الوهرانية، هذا فيض من غيض كما يقال، لأن الأرشيف الفرنسي المعروف بأرشيف أكس وهو متعلق بالوثائق الفرنسية الخاصة بالهجرة إلى الديار الإسلامية، هو ملف متسع فهمه وقراءته يحتاج جهدا جماعيا وعملا أكاديميا مستقلا. لقد أردنا أن نفتح ما أغلق من الثقافة الاستعمارية ونبحث في قدرة هذا الجهاز الاستعماري، الذي استطاع أن يخترق المنظومة الثقافية للمجتمع الجزائري، ويتمكن من تسخير قدراته لتخدم مشاريعه الاستعمارية، لأن معرفة العدو من أولويات كل بحث تاريخي، والله الموفق لما يحب ويرضى.

الأغواط: 20 ديسمبر 2018 ميلادية

بسم الله الرحيم وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله

الحمد لله الذي خلق الإنسان من طين وصوره في أحسن تقويم، وشرفه بنور العقل فهداه إلى صراط مستقيم، خلق الخلايق[2] وأحصاهم عدد وقسم الأرزاق بينهم فلم ينس منهم أحد، أحمده حمد من عرف قدره و استبصر وبصر، فخاف ربه يوم الوعيد وعن الخير فما قصر، فنهى النفس عن الهوى وحاسبها، وإلى سواء السبيل أرشدها، وأصلي وأسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين سيدنا مُحَمَّد السيد الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه وجميع الأنبياء والمرسلين.

وبعد لما تعلق القلب بزيارة فرنسة مرة ثالثة واشتاقت النفس للتمتع برؤية تلك المدن العظيمة والأمصار، والمعاطن[3] والبساتين والديار، رجوت أن أكون مع من حضر وقلت لعل غرس التمني يثمر، فكان الأمر بحول الله كذلك، وحمدت الله على ذلك، ثم خطر ببالي بعد الرجوع إلى وطني أن أجمع نبذة أذكر فيها بعض ما عاينته في السفر قصدا في انتفاع من لم يكن معنا حاضر، لا أنا مباه بها ولا مفاخر ورتبتها على أربعة فصول.

الفصل الأول في محاسن فرنسة وملاقاة أعيان العرب مع أرباب الدولة.

الفصل الثاني في عجايب معرض باريس وما يتعلق به.

الفصل الثالث في تسراد الجيوش وتنظيمها بفسحة فانسان[4].

الفصل الرابع في توديع أعيان العرب لفرنسة عند خروجهم منها وعرض حال لولاتها

وسميتها الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية قلت وعلى الله توكلت.

---

[2] الخلق.

[3] المعاطن لفظ عامي يعني الحقل والمزرعة.

[4] Vincennes

الفصل الأول في محاسن فرنسة وملاقاة أعيان العرب مع أرباب الدولة

أننا ركبنا البحر من مرسى الجزائر في غرة شعبان المطابق لشهر غشت سنة 1878 في جماعة من أعيان العرب قاصدين المدينة العظمى باريس، التي اجتمع فيها ما افترق في غيرها من الحسن والإحسان، وضمت ما تشتاق إليه الأنفس وترغب في سماعه الآذان فاستقبلتا أهلها بالبشاشة الدالة على المروءة ذو وجوه كغرة الصباح سميحة، وعقول ثابتة صحيحة، وصدور سالمة فسيحة فنزلنا بأحسن المنازل الرفيعة مفرشه بالأفرشة البديعة، ولم يزالوا متفقدين لأحوالنا تفقد المرضعة لرضيعها ساعة بعد ساعة. ملحين علينا فيما نحتاج إليه بكرة وعشية موايدهم للأضياف منصوبة وعوايد برهم لكل طارق مرغوبة، قل ما شئت فيهم من مديح تجدهم فوق ما تطق المديح، وبعد الاستراحة دعانا حضرة المارشال ماكماهون[5] للحضور بشريف منزله فأكرمنا غاية الإكرام، وحصل لنا بزيارته فخر بين الأيام، ثم عطف علينا بعض رؤساء الدولة وأكرمونا وإلى قصورهم المشيدة أدخلونا، فمنها وزير الحرب سعادة الجنرال بوريل[6] فإنه دعانا للضيافة في محله الرفيع، المحتوي على شكل بديع، فيه ما يملأ العين قرة ويسلي عن الأوطان كل غريب، وكذلك وزير الأمور الداخلية فإنه أكرمنا وفرح بنا ثم السيد سفار[7] نائب وزير الأحكام الشرعية. وهكذا الكل أخذ بأيدينا واستبشر بقدومنا، فحصل لنا باعتيائهم إيانا غاية السرور فالبعض منهم أكرمنا بطعامه والبعض آنسنا بهيب حديثه، سيما ذو الأخلاق الحميدة والسيرة السريدة[8] قانبيطا[9]، فقد تشرفتا

---

[5] Le Marechal De Mac - Mahon

[6] Le général Borel

[7] Savary

[8] ما كثر سرده وتداوله بين الناس

بزيارته واستنار العقل بمخاطبته، فوجدناه حام للوطن ساع في خير العامة، له اعتناء زايد بأمور السياسة، وكذا استمرت أيامنا كلها مواسم وأعياد، وقد كان العرب يظنون فرنسا عندما لحظتها عيون السوء انتقاص شأنها، فلما وقفتا بها وجدناها قذى في أعين الحاسدين، وأنها أجل قدرا وأعظم قوة مما كانت عليه من كثرة الجيوش والإقامة والآلات الحربية كما سيأتي بيانه. فحمدنا الله على ذلك وأثنينا خيرا على من ساعدنا وأعاننا ووفى مرغوبنا في السفر سعادة القفير تور جنرال شانزي[10]، المتدرب في أمور العرب العارف بأحوالهم، زمنا طويلا الذي مشى في الرعايا طريق الحميدة والسيرة السريرة، العادل في أحكامه بين الكبير والصغير والمأمور والأمير، وكذا حاكم عمالتنا الوهرانية سيادة الجنرال سيريس[11] المحب الخير للرعية المجتهد في إصلاحها، وكذا المعين له السيد الكمانرانت مونيي[12] فقد كانوا لنا سببا في اغتنامنا هذه الفرصة لمعرفة رجال فرنسة وواسعة في التشرف بزيارتهم والجلوس على موائدهم، فتمتعت أبصارنا بمشاهدة ما لم كنا نعرفه وتفقهنا بما كنا نجهله، وليس الخبر كالعيان. هذا ولنرجع لما كنا بصدده فكلما مررنا بمدينة وبقرية من مرسيلية إلى باريس، إلا ورأينا على حيطانها كتابة غليظة كقوايم الإبل يستخرجها الأعمش من بعيد، فضلا عن صحيح البصر لن نعرف حقيقتها. فسألنا عنها قيل لنا هي ثلاث كلمات ليبرطي إقليطي فرطيرنيطي[13]: أعني

---

[9] Gambetta

[10] le général Chanzy

[11] le général Cérès

[12] Commandant Monier

[13] Liberté, Égalité, Fraternité

الحرية والأخوة والمساواة فيا لها من كلمات يحق أن تكتب بماء الذهب، ويا ليت الناس يعرف قدرها ويعلم ما ضمته من المعاني، وحقيق أن الخير مجموع بها إن عمل بها، فلما استفسرناها وتأملناها ازدادت قلوبنا تعلقا بمحبة الدولة الفرنساوية لما علمنا من حريتنا نحن العرب ومساواتنا مع النجباء أولاد فرنسة، وإن كنا لا نساوهم في العلوم والخدمة فإننا نساوهم في الصرف والثبات فالآن قد ثبت عند المسلمين اعتناء الفرنساويين بهم كإعتيانهم بأولادهم، كيف لا وقد طال ما زرعت الدولة من المحامد بأرضهم ودبت في مصالحهم منذ استيلائها عليهم وأحيت علوما كانت لأسلافنا في القرون الماضية، ثم كادت أن تندثر ولم يبق غير الاسم. منها رغبة في لحوق المتأخر منا بالمتقدم، منها فيحق لنا أن نحمد الله تعالى على دولة مَنَ الله بها علينا، ونجتهد بواسطتها في اتخاذ الأسباب التي ستعود بها لسيرة أوائلنا، فإن فضايل الله ليست محصورة في قوم ولا مختصة بيوم دون يوم، وكفى شاهدا بتربية أولادنا الصغار مع أولاد الفرنساويين في المدارس التي هي ميادين الارتقاء والحياة الطيبة العزيزة على البقاء، فإنهرقت المحابر في حجور بعضهم، كما انهرقت دماء أولادنا الكبار مع أولادهم في ميادين الحروب، بأرض الجزاير والبلاد الأجنبية غيرها. إلا على العلم فإنه والله أحسن غنيمة وأربح من كل شيء قيمة، وقد كان العرب في الفارط عن فتح كل مدرسة وترغيب الدولة إياهم، لمن المكرمة تنكروا من ذلك ظنا منهم أنه مفسدة لدينهم، حتى قال بعضهم إلقاء أنفسنا ونساءنا وأولادنا في البحر أهون علينا من تبديل ديننا، وفراقنا مع أولادنا ولسياسة الدولة جعلت لهم مدارس عند أبواب ديارهم، كي لا تفرقهم عن أمهاتهم، ومع تحريضنا لهم ونصيحتنا إياهم أدحانا بعقولهم ما ينتج للتلاميذ

من ثمرة التعليم، وقلنا لهم هل يستوي الأعمى والبصير والأبكم والناطق، أم هل يستوي الأعرج والصحيح السابق. ولم نزل نخاطبهم على قدر عقولهم حتى طابت أنفسهم، وشرع البعض من أبناء الخيم الكبرى في إرسال الأولاد للمدارس، فاستأنسوا شيئا فشيئا. والآن لما أقبل وقتا اكتسب فيه أبناؤهم المناصب الشرعية والمخزنية[14]، كل منهم على قدر تحصيله للعلوم وتنوير عقله، حمدوا الله وأثنوا علينا خيرا قي نصيحتنا لهم، وشكروا الدولة شكرا مؤبدا، فعما قريب يأتي زمنا يمتزج قيه العرب مع الفرنساويين ويصيرون كذات واحدة، يعيشون مع بعضهم أكثر مما هم عليه الآن، عيشة مرضية وليس للعرب ما يروعهم وتفي منه أنفسهم غير أمر الديانة، لأن عالمهم وجاهلهم يقول المصيبة في المال ولا في الأولاد، في الأولاد ولا في الأبدان، في الأبدان ولا في الأديان. وفي الحقيقة شرط الديانة هو أن الإنسان يحب لنفسه ما يحب لغيره، ويكره لنفسه ما يكره لغيره، فإذا كان على هذه الصفة، وصفا قلبه من أي دين كان فهو من خيار قومه، وإنما الأديان طرق والأعمال زاد المسافر بها، فكل إنسان يحصد ما زرع ويذخر لآخرته ما جمع، لكن الناس معادن أفضل العباد من اهتم بمصلحة العامة وسعى في خيرها، فهو كالشجرة المثمرة لا يتمنى أحد زوالها وربما حتى الآلة الحديدية لا تمسها احتراما لها، وأوباش الناس من اختص نفسه ولا يبالي بمضرة غيره، ومثل هذا لا يلتفت إليه عاقل، الخلق عيال الله أحبهم إليه أنفعهم لعياله.

[14] المخزن ومخازنية لفظ متداول في المغرب العربي هم النخبة الحاكمة يتألف المخزن من النظام الملكي والأعيان وملاك الأراضي وزعماء القبائل وكبار العسكريين، ومدراء الأمن ورؤسائه، وغيرهم من أعضاء المؤسسة التنفيذية.

الفصل الثاني في عجايب معرض باريس وما يتعلق به

ولما دخلنا دار المعرض الكابر بالمحل المسمى شارد مارس[15]، المجتمع فيه غرائب الصناعات الفايقة والاختراعات البديعة الرايقة، فوجدناه أمر عجيب يحتوي على أصناف نتايج الزرع ونتايج الضرع والمعادن والتحف، كل شيء منها على حدة موضوع بالإتقان والتحكيم، وكل شيء يستخرج بالآلات والحركات العقلية. فترى الصوف مثلا في محل معملها تخرج خيطا، ثم يصير ملفا جيدا ومتوسطا وأدنى، فتقول أين المشط وأين المغزل وأين المنسج وأين الخلالة والشي المتناول باليد وترى أنواع الأقمشة من حرير، وكتان بأنواع التطريز الغريب المذهب الملون، وأصناف الحاشية العريضة والضيقة. تخرج كثرة بأدنى كلفة ولا عمل يد، وأما المعادن فترى قطع الحديد بدار المعمل مكومة في جهة، وترى الفاس والشاقور والمزبر والمنجل والمحراث والمنشار ونحو ذلك مما لا يحصى، يخرج من جهة أخرى مكمول الصناعة، وكذلك الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير والرخام والبلور والزجاج. فترى مثلا الذهب في معمله حجرا ملوث بالتراب، موضوع في جهة وترى من الجهة الأخرى السوايع والسلاسل على اختلاف أنواعها، وأصناف حلي النساء كالسوار والخاتم ونحو ذلك، حتى السكة من اللويز الكبير والصغير، فتراه يخرج من المطبعة كالقطرة واحد بعد واحد وتارة على تارة، يُنظر لويز ويسقط في جهة أخرى، لأنه لم يكمل في المطبعة، فيرد للمحل الأول ليذوب ويخرج مرة ثانية كاملا موزونا. فيقول الإنسان أين النار وأين الرابوز وأين البوط، وكيف تسبك هذه الأشياء وتصنع دون رؤية المعلم والمتعلم

[15] Champ -De -Mars

والصانع، وترى في معمل الرخام المرمر قطع غير منحوتة ولا منجوزة، ثم ترى الصور الغريبة والسواري المنقوشة وخاصات الماء الرفيعة، وهكذا كل شيء يخرج بواسطة الآلات والحركات العقلية، حتى القمح يوضع حبا في جهة ويصير دقيق مغربل صاف بالحركة في جهة، ثم يخرج خبزا وبشماط للعسكر في جهة، وهذا في أسرع وقت والإنسان واقف، وأغرب من هذا أن الماء والنار ضدان والضدان لا يجتمعان. فرأينا الثلج يستعمل من نار وماء بالآلات والحركات العقلية، فلو سمعنا بهذا لما صدقه العقل، لكن ليس الخبر كالعيان فوقفنا باهتين، وقلت في نفسي اعتبر يا أحمد بن قادي وأخبر من يعتبر، وكما رأينا الماء المكدر بالأوساخ، لا تشربه البهائم فضلا عن الآدمي، يعالج ويخرج كالجير صاف، وكذلك الماء المالح يصير بالمعالجة حلوا، وهناك محل مسقف بالبلور الغليظ، فمن الناس من يمشي بداخله وآخرون فوقهم كأنهم يدوسون على رؤوسهم، وفيه واد بينه وبين المتفرجين حايط من بلور، ترى فيه أنواع السمك النهري والبحري، لامتزاج المياه الملِّحة والعذبة فيه بالصناعة الغريبة، التي لا سبيل لوصفها فترى القرنيط وأم الجنيبة والمرينة وأنواع السمك، هذا يأكل في هذا وهذا يفر من هذا، فمن لم يعلم ما في قعر البحر يكفيه رؤية ذلك، ومما يستغرب أيضا في محل المعرض قصر مشيد في جو السماء، وفيه كوة مقوسة وسعها نحو العشر ميترات. فجلبوا شطرا من الوادي العظيم الآتي وصفه وأدخلوه في القصر صاعدا بالآلة في الهواء، ثم يتدفق من تلك الكوة تدفيقا هايلا، يقلب بقوته السفينة ويكوّر بدفعته الدار المتينة، والناس يمشون من أسفل مع جدار القصر خلف الماء فيصيبهم بلل ضعيف، كالطل النحيف لتقويس الماء على حسب الكوة كما أشرنا. فتجتمع المياه في

بركة كبيرة كالضاية، ثم تفترق جداول محنّشة في أرض أحدقت بها البساتين الوارثة الظلال العدّيمة المثال فترى الخضرة في خلال تلك القصور المبيضّة، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة فجمالها يدخل على القلب السرور، ويذهل العقل كأنه من النشوة مخمور، فيقول الإنسان هذا منام أم يقظة أو هو في الدنيا أم نوع من الجنة، ومن المستغربات أيضا أننا رأينا صورة هامة إنسان من نحاس أكبر من القبة الشاهقة، تجلس جماعة في إحدى ثقبتي منخريه، قلنا أهذا هو الغول المخوف به الصبيان أم هامة عوج ابن عناق، وسبب وضع هذا الرأس الهايل المنظر في محل العرض، هو أن بأرض الجمهورية الأمريكية واديين عظيمين، يلتقيان في البحر تسير بهما المراكب من بلد إلى بلد وهناك مواضع مخوفة، يتكلس فيها الرمل يخشى تحريث المراكب فيها، ولما بين الدولة الفرنسية والأمريكية محبة قديمة، أهدت لها صورة إنسان من نحاس رجليه في الثرى ورأسه في الثرية، بداخله أدراج كالصومعة وعلى رأسه نجمة، وتلك النجمة منارة مستضيئة، تدل الراكب على المجاز فكانت بعثت لها فخذ بعد فخذ[16]، ويد بعد يد والجوف وحده، وأبقت الهامة في محل المعرض، ما دام مفتحا من جملة العجايب، ثم يلحق بذاته ويركب بالمفاصل ويُركز في ملتقى الوادين بأرض الأمريكية كما وصنفاه. ومن جملة ما رأينا من أدنى الغرايب استخراج أفراخ الطيور من غير تحصين فتراهم يجلبون أنواع البيض من كل بلد ويعالج بالحرارة المناسبة لأمهاته، حتى يخرج أفراخا زاغدة طالبة للمعاش، وكما رأينا أصناف الخيل من القصير كالكبش إلى الضخم كالفيل، وكذا أنواع الكلاب من قدر الهرة إلى السبع، البعض بشعر طويل

[16] يظهر من السياق أنه يتكلم عن تمثال الحرية.

والبعض كلمزود لحم في جلد، وكذا أنواع الطيور من العصفور الصغير قدر الفراش إلى النسر. ومما يستغرب في التصاوير من رخام وشمع فإن الموسكو جعل محلا فيه جماعة من الناس، كلها تصاوير البعض متكئا والبعض قايما، والبعض يتكلم مع صاحبه سرا كأنهم في شغل، وهناك طيور من فاخت وبلبل ومقنين وشحرور وأشكال عديدة، حتى البابا غان في قفص كبير، كل واحد يغرد بصوته المعلوم وينقض جناحيه ويلتفت يمينا وشمالا، والحالة أنها ميتة مكوفرة وبالحركات العقلية تستنطق، وهي راقصة فوق أغصانها حناجرها محركة وفمافمها مفتحة. وكما أن الإصبانيول أحضر في محل المعرض أنواع آلة الأبطال الأقدمين من زمن الأندلس، كالزرد والبيضة ونحو ذلك، وجُعل قصرا مشيدا يظهر للرائي زجاج ملون، فإذا دخل وجد سواريه وأبوابه وحيطانه مغطاة بأنواع الشراب في ظروف من أنواع الزجاج، مركب في غاية الإتقان متعة للنظر. وكما أن الملك ابن ملكة الإنجليز أُهدي له من الهند أنواع السلاح الغريب من سيوف مجوهرة، وخناجر مرصعة بحجر الماس وبنادق طويلة وقصيرة ورماح، وما أشبه ذلك شيء غريب وضع في عظيم للتفرج والنزهة، وأعظم وأبجل وأعلى قدرا وشأنا من هذا كله ياقوتة الملك اليتيمة، التي لا تُقَوَم بمال المعروفة في تواريخ العصر بالريحان، وتاج السلطة المنظم باليواقيت الفاخرة والدرر النفيسة موضوع بمحل، وأي محل يحول بينه وبين المتفرجين نهارا حايط من بلور، فإذا جن الليل تفتح كوة في الأرض بالحركة وتسقط الياقوتة فيها كالكوكب المستضاء بين الكواكب، ويغلق عليها بصخرة. وبالجملة هذا شيء غريب لا سبيل لحصره وإنما اختصرنا بعضه ليعتبر العاقل، ما يتوصل إليه الإنس بنور العقل، وإلا فما هو إلا ما قالت الأجناس هذا حمل لا يطاق

على حمله، غير أنه يا أسفا مع إطلاعنا مع تلك العجايب التي يعجز الإنسان على وصفها، لم ندرك حقيقة الكثير منها، ولنرجع إلى وصف واد باريس فإن هذا المحل الغريب يشقه أحد الأودية العظام في الدنيا المسمى لاسين، قيل هو المعروف بجيجون، قنطرته المعتادة تسمح مرور أربع عربات محاذية لبعضها، ولما إن وقت افتتاح المعرض، جعلوا فوق القنطرة سطحا من الحديد والأخشاب المتينة، ممتدة من الجانب إلى الجانب في غاية التحكيم والصحة، فصارت تسع مرور عشرين عربة، تحمل ماية نفس دفعة واحدة. فيتوهم الإنسان أنه ساير في فلاة وذلك خلاف من يمر تحت القنطرة في المراكب البخارية المسماة عندهم موش[17] أعني ذباب، الوادي الواحد منها يحمل خمساية نسمة كأنها بطّ يسحب على وجه الماء فهذا ذاهب وهذا راجع وترى الناس تموج في محل المعرض كموج البحر مترددة إليه أفواجا، قيل أن عدد الداخلين إليه الواردين من أطراف الدنيا يبلغ كل يوم الماية ألف، فيتخيل لمن رأى تلك الملايين من الخلق من البعد أنها طرق نحل أو جراد مارد. قوم متعجبة مرفوع لما بينها من التباين في اللغة والشكل والطبع واللباس، فمن اطلع على كتب التواريخ شبه ذلك الجم الغفير بمدينة بابل، التي اجتمعت فيها ساير اللغات فتراهم يتبادرون للمسالمة والمكالمة والممالحة، ويرغبون بعضهم بعضا للحضور على موايد الطعام، كأنهم إخوان من بطن واحد أو وطن متحد، فجزا الله الدولة الفرنساوية عن العباد خيرا، لأنها الواسطة لهذه الفضيلة، وحياة كل أرض حلت بها كأنها أمطار وبيلة، ومما يستغرب له أن مع اختلاف هذه الأقوام والملايين من الخلق، لا يُسمع لهم دوي ولا غوغاء. فهن

[17] Les Mouches

ثمرة الثلاث كلمات الحرية والأخوة والمساواة، وكما أن المعرض المبارك ينبئنا بلسان الحال عن زمن الراحة والخوض في ازدياد التجارة والفلاحة، وارتقاء العرب لدرجة التمدن والرفاهية والتعليم بفضل الله الكريم:

فللنّجم من بعد الرجوع استقامة   وللبدر من بعد المغيب طلوع

هنيئا لفرنسة التي هي أم الجزاير فقد زادها مرّ الليالي، جدّة وتقادم الأيام حسن الشباب.

ومن جملة ما يجب شكره ولا ينقطع ذكره، هو أن أحد أبناء الخيم الكبرى من الدوار يسمى إسماعيل بن المزاري، الذي أمضى زمنا طويلا قي خدمة الدولة ونال لحسن سيرته جزاء الحرمة كان توجه لحمام فيشي بفرنسا، لعلاج مرضه فأدركته المنية هناك، مع وصولنا فوجدنا أهل تلك المدينة في غاية الوقوف معه، فمن ذلك جعلوا البعض منهم واقفين للتعزية منكسين الرؤوس مظهرين الحزن باكين العيون كأنهم من أوليائه، والبعض يمر عليهم وهم في غاية التأسف أكثر منا، ثم جعلوا له تابوتا وشيعوه في التوجه إلى وهران بغاية التحفظ والاعتناء الكامل. وفي يوم من أيام سيرنا التي مرت علينا كلمح البصر، صادفنا وقتا لزيارة قبر المرحوم الجنرال الموريسي[18] الملقب عند العرب بوهراوة، فرأينا صورة من نحاس مضطجعة على قطعة من رخام مستطيلة، وعلى الأربعة أركان منها صورة مستغربة، فلما دنونا منه عرفنا ذاته كأنه نايم، فسلمنا عليه واحترمناه احترام الحياة، وقد تذكرنا الأيام الماضية معه ومع المرحوم الجنرال مصطفى بن إسماعيل، وقوم الدواير معتبرين الزمن القديم وأهله، وقلنا له تأسفا على سبيل

[18] La Morocière

التمنّي، آه على الدنيا ليتك نعود إليها كي تزجر بهراوتك من استوجب الزجر، فرحم الله قوما أسسوا الخير والعافية في البلاد، وأطال عمر سادات اليوم الساعين في تكميل القصد والمراد بمنه.

الفصل الثالث في تسراد الجيوش

ففي يوم الأحد الخامس عشر من سبتمبر، تشرف البعض من أعيان العرب بالحضور في تسراد[19] العساكر وتدريبها وتنظيمها على هيئة القتال، شيء غريب وكان ذلك بفسحة في غاية الاتساع تسمى فانسان[20]، معرة لتمهير جنود الطبجية في فن الرمي بالمدفع، فلقد تمتعت نواظرنا وانشرحت خواطرنا ورقصت أفكارنا طربا، وأخذنا من ذلك المنظر الحسن عُجبا وعَجبا، قيلاه من يوم مشهور وليبلغ خبره الحاضر للغايب، ويسير بذكره في المشارق والمغارب. يبقى حديثه على مر الأيام ترويه أقوام بعد أقوام، فما ترى غير بوارق السيوف الساطعة في ديلجي الغبار وسوابق الخيول، التي لا يجد العدو منها فرار والصفوف الهايلة الرؤية الشديدة الوطأة، التي لا يدخل نظمها اختلال ولا يطمع في تفريق كلمتها عدو ومحتال، وهذا الجيش الذي رأيناه يشتمل على نحو الخمسين ألفا ما بين المشاة على اختلاف أصنافها، والخيالة على أنواعها بمدافعها، ما عدى طايفة الجيني وأصحاب الأثقال والوكلاء، المتصرفين في أنواع المؤونات المعبر عنهم بالليطاندانت. وقد رأينا الأسبيتال محمول فوق كراريس متينة، مطلات بالأحمر والأبيض مميزة بصليب وراية أيضا بالصليب علامة، بين الأجناس في القتال على احترام المرضى والمجاريح واجتناب مضرتهم.

تنبيه إن ما شاهدناه من الجيوش في ذلك اليوم، فما هو إلا جزء واحد من تسعة عشر جزء مثله كل جزء يسمى كوردارمي، المعبرعنه بالعرض يتأمر عليه ديفوزنيين

[19] Manœuvres Militaires

[20] Champ De Vincennes

مشاة ودفيزيون خيالة، وما يتيح ذلك كما ذكرنا. فمنها أن ببر الجزاير تحت إمارة سعادة القيذورنور[21] جنرال شانزي جزء واحد أعني كوردارمي، وقس على هذا مما يطول شرحه. تعلم ما هي عليه فرنسة من القوة والإقامة، ما لم كنا نعلمه وهذا خلاف الرديق والبلدية، وقد كان المتأمر على تلك الجيوش التي هي جزء واحد كما وصفنا في ذلك اليوم، البطل المشهور الذي هو في ألسنة العرب مذكور، سعادة الجنرال دولينيي[22] فبينما كانت صفوف العساكر مرتبة مسكنة ومحل المتفرجين، غاصّ بالناس إذ أقبل حضرة الماريشال ماكماهون في أبّهة، وحفل بهي كالبدر بين الكواكب، راكبا على حصان من عتاق الخيل، مرهب تلوح عليه سمة الملك. كيف لا والخيل أسّرة الملوك وإنها أشرف الحيوانات فقد كان نبينا ﷺ، وضع يده الكريمة على فرس وقال: ظهرها عز وبطنها كنز، وكان يمسح وجه فرسه بكمّ ردائه لمعزّتها، ولهذا أن الحرب لا تعبأ برئيس القوم إن كان راجلا ولو يبلغ ما يبلغ في القدر، فلما وصل أعزه الله إلى الصف الأول من الجيش، مرق كالسّهم والموكب في أثره وكانت شرذمة من الصبايحية يقودها ليوتنان[23] أمامه، ولم يزل راكضا إلا أن أحاط بجميع الجيوش وحلّ بصدر محل النزهة. فوقف وقفة ضيخم وولّى الموكب على جهة والصبايحية في منتهاه، وقد كان سعادة الماريشال كاتروبير محاذيا له، وكثير الجنرالية كالجنرال دابزاك[24] والجنرال بروا[25]وأمثالهما والكلونيل روبير[26] وأقرانه على حسب المراتب كالأسود الضارية،

[21] Gouverneur général DE L'Algérie
[22] le général Deligny
[23] 2 lieutenant
[24] d’abzac
[25] Brois
[26] Robert

وبالجانب الآخر الأمير أخ ملك روسيا ورؤساء الدول وسفرائها، كالترك والإنجليز والطليان والإسبانيول والبروس وغيرهم، كل منهم مميز عن غيره بزيّ لباسه كأنهم روض مختلف الأزهار، تزهر برؤيته الأبصار ولسان الحال يقول:

قد أقبل وقت السعود بطلعة الغر على الوجود

هذا وسعادة وزير الحرب بوريل كان مقابلا له في محمل أيضا من حزب الطماجور[27]، فضجت الخلايق وتطاولت الأعناق مصرخة بلسان واحد على الاتفاق، أدام الله وجود ماكماهون أدام الله وجود الجمهورية الفرنساوية، ثم شرعت العساكر في المرور بين المحفلين، تمر مر السحاب في غاية التنظيم والتحكيم الحربي. والخيالة قد أطلقت الأعنة كالسيل الغزير دفعة واحدة، ثم وقفت مصطفة وقفة فارس واحد كبنيان مرصوص، ولما انكشف الغبار ظهرت كبكبة الطبجية بمدافعها تزلزل الجبال وكراريس بخيل كالأفيال، وحين انتهى التسراد ووقف كل منهم في محله، تقدم رئيس الجيوش المشار إليه أمام حضرة المارشال ماكماهون، وأهدى له سلاما خاصا، فأجيب بالثناء جزاء لحسن تدبيره في فن الحروب وتدريبه في شن الغارة. فعند ذلك لويت نواصي الخيل وولت إلى أماكنها رويدا، ثم اجتمعا المحفلين وانصرفا، وقد كل أخذ واحد منا في ذلك اليوم حظا وافرا من السرور، وفي الغد الذي هو يوم الاثنين عشية دعانا حضرة المارشال ماكماهون لوليمة أعدها لكبراء جيوش فرنسة، ورؤساء الأجناس الأجنبية، فكانت ليلة مشهورة قل ما يأتي الزمان بمثلها يعجز الواصف عن وصفها. اجتمع بها من رتبة الفسيالية[28] إلى الجنرالية على اختلاف أنواعها فترى ملابسهم

---

[27] Etat Major

[28] Les officiers

المطوقة بالذهب في الضياء كالنجوم تلتهب، وتارة على تارة يُطلق نور مشعشع بألوان مختلفة، فترى الأرض ومن عليها حمراء وتارة زرقاء بهجة للناظرين، وبهذه الليلة المفتخرة على سائر الليالي كان انتهاء نزهتنا بباريس.

الفصل الرابع في توديع العرب لفرنسا وعرض حال لولاتها

هذا ولما آن وقت الرحيل جرعنا كأس الفراق بعد حلاوة التلاق، ولم يصبنا يوم خروجنا من وطننا مثل ما أصابنا يوم الخروج من فرنسة، فانصرفنا والعيون ملتفتة إليها وسفرنا والقلب مقيم بها، لكن صَبَّرنا بالأماني أنفسنا، وقلنا لعل القضاء أيضا يجمعنا. ثم قلنا توديعا من صميم الفؤاد سلام عليكم يا أهل الود والوداد، وسألنا الله تعالى أن يبقي وجود سادات فرنسة وأوتادها، الذين نظموا الأمور ودبروا الجمهورية، وثبتوا الأساس ونشروا العدل بين الناس بسعادة أمان ديارنا، ومشيد بنياننا حضرة المارشال ماكماهون، لا زال السعد له خادما والعز بأبوابه ملازما، والرعايا باسطة إليه الأكف والأعداء، لابسة منه ثياب الخوف بمنه.

وفي هذا القدر للمعتبر كفاية إذ ليس لما وصفنا حد ولا نهاية، وإن ما شاهدته العيان لا يفي به قلم ولا لسان.

عرض حال

المرجو حسن التفاتة نحو العرب من رجال الدولة وأوتادها، الذين ارتبطنا معهم زمنا طويلا بسلسلتين متينتين، وهما اختلاط الدماء في مواطن الحروب، وتلك عقدة ثابتة، واختلاف الأيادي على الطعام، وذاك مما يكون بين الغرباء والعشيرة. فنحن إذا كعيال واحد، الحي منا مع الحي منكم والأموات مع بعضها، فمن ذا الذي يعرف العظام المختلطة في مقابر القتلى، بالمكسيك والإيطاليا والبروس وفي الجزاير إلا الله تعالى. فالمأمول من السادات أن لا ينسونا في رفع المضرة علينا، قلنا حق عليهم أن لا يتركوا أمة مشهورة أودعها الله أمانة بأيديهم في زوايا الإهمال، ولهم حق علينا في الطاعة وإتباع الأوامر على كل حال، وإن ما يحل بالعرب من إتلاف أموالهم وذهاب عقولهم، بما هو الأمر غشامتهم وجهلهم بالأمور الشرعية والقوانين المحكمة، مع أنهم يخافون من الحكم ويتبعون الأوامر، نعم فالشريعة الفرنساوية وإن كان في نفسها خالية من الأغراض فلجهلهم بأمورها يصعب غليهم الوصول إليها، والتوصل بحقوقهم لديها.

أولا: توسط السماسرة واليهود بالدراهم المتجاوزة الحد.

ثانيا: تضييع الوقت بالإطالة والترداد، إذ في الآجال والبطالة وترك الأشغال.

ثالثا: مصاريف الطريق البعيدة.

رابعا: عدم المعرفة بأمور الشريعة وهذا مما يضيع حقوقهم، فلو كان لهم معرفة بطريق الشريعة الفرنساوية لسلكوها آمنين، وما الطريق من حيث هي كالحيّة من عرفها قتلها ومن لم يعرفها قتلتْه. فإن قلت ولماذا أهمل السؤال عن الطريق ولم يتخذ خبيرا لها، فأقول فإن سأل عربي مثله فيجده أجهل منه، وما أراهما إلا أعمى يقود في أعمى،

كلاهما في حفرة وإن وقع في شبكة السماسرة واليهود، الذين يوصلونه ويدلونه على الطريق يضمرون له النصيحة في ربح دعوته، لكن يتركونه في قميص، قبل الوقوف لدى الشريعة فلا ينجو من إحدى السخطتين.

ومما ينبئ عن تغفل العرب وجهلهم بالأمور، أن أحد العرب عليه مال في ذمته ليهودي، وكان اليهودي يحسن إليه ويكرمه ويدخله لبيته، فيعميه ويصميه بالحلاوة والمأكل، التي ما رآها في عمره قط. فلما قرب أجل الدفع بعث للعربي ورقة يدعيه للحضور أمام الشريعة، فرفع العربي الورقة التي جاءته وذهب بها إلى صاحبه اليهودي فاعتذر له طالبا منه المهلة، ظنا منه كشريعتنا في تجديد الآجال، فهون عليه اليهودي الأمر وقال له ارجع لبلادك لا تخف فإن حضوري يكفي عليك، ثم لما نودي على اليهودي أجاب قايما، والعربي في بيته غاص في غفلته. فحكمت عليه الشريعة حكم الغايب " جوجمة ديفوا "[29]، ومع هذا لم يعرف كيفية الإعادة ولا المرة المعينة لها، إلا أن جرى عليه حكم البت وبيعت بلاده غبنا، ومثل هذا كثير الوقوع بالعرب، فلو كان لهم علم بالطريق لَما ضلوا.

نادرة لطيفة: أن أحد العرب كان أمره الحكم بالحضور على الساعة الثانية بعد الزوال، فصار مشتغلا بإرصاد الوقت ليلا يفوته، سائلا عن الساعة كل من يلقاه، فغفل هنيهة إذا به سمع طنين الناقوس في الكنيسة، تخيل له ضرب الساعة. فجعل يعدّ في أصابعه وهو يهرول ويتكلم وحده كالمعتوه قائلا: إخلا خيمتي الحكام قالوا لي على الزوج، وها هي ضربت أربعة وعشرين ضربة فكل من يسمع كلامه يحسبه اختل

[29] Un Jugement De Defaut

عقله، وهو يجري يستغيث ولا يغاث. ويكفيك البعض منهم يدخل إلى دار الأبوقاط[30] بالواسطة كما ذكرنا ليتكلم في حجته، فإذا خرج من البيت يلتمس أدراج السطح فيصعد معها، عوض أن ينحدر من حيث دخل، وهذا غلط فادح وغشامة وحشية، حتى جرى بالألسنة لفظة " بيط " في حق العرب، فإلى من يتوجه هذا الغشيم المسكين وأي باب يصرفه. تنبيه اعلم أن بر الجزاير يشتمل على نحو الثلاثة ملايين وزيادة، فعلى تقدير النصف بلغ إلى درجة التمرن، والنصف متلاحق في أثره مقتربا بالأول، فإنا نرى اليوم العربي كلما شاهد جاره الإفرنجي يُحصِّل من عمله في الحراثة والغراسة ونحو ذلك ما هو أبلغ منه، مع أن التراب كالتراب يلزم نفسه بالخدمة مثله، في اتخاذ المحراث الإفرنجي والآلات المتقنة، وهكذا لكل شيء دليل. وأن نراهم اليوم في زيادة الإتقان وعرفوا الفوائد المتحصلة لهم منه، فكانوا مقتصرين في حراثتهم على زراعة القمح والشعير وقليل الفول والحمص لا غير، ثم تمادوا إلى غراسة القطن والكتان والبطاطا ونحو ذلك، وكنا نرى من قبل جز الغنم بالمجزة العربية، فيا ويْح الشاة التي تكتب للجزِّ فالذبح لها أهون لتعذيبها وتمزيق جلدها، والآن استعمال جز غنم الكثير منهم بالمقص، وهكذا في كل شيء ولا شك بعد مضي أعوام قليلة، يبلغون لدرجة التمرن، كما هو المنى. لكن ينبغي السياسة لصعوبة تبديل العوايد، ولا يخفى على عاقل محصولات بر الجزاير، من قمح وشعير وصوف وزيت وبقر وغنم وغلل وأرزاق، مما يُحمل منها في كل سنة شيء كثير، وهذا كاف إذا اعتبرتم الماضي والحال والمستقبل، واطلعتم على الدفاتر المحفوظة تنبئكم عن حال العرب، كيف كان قبل

[30] Avocat

دخولهم في الحكم العمومي، وكيف هم الآن. تعلموا خيرهم وشرهم بالزيادة والنقص في مجابيهم، فإذا كان هذا فلا ينبغي للعرب الذين تحصل منهم الفوايد الجزيلة أكثر من غيرهم، أن يتأخروا ويتركون في زوايا الإهمال، وإن كان لم يبلغ الكل لدرجة التمرن فالالتفات إلى الأكثرية حق واجب، ولا يستبعد ارتقاء العرب في التعليم، فقد شاهد الكثير قابلية أولادهم في المدارس بالمدة القليلة، لكن لا يستقام أمرهم وتصلح أحوالهم، بينما يبلغون هذه المرتبة الخيرية كالإفرنج. إلا بانتخاب رجل من كل عماله يكون منهم يسمى نايب عنهم في ديوان المشورة، كنواب الفلاحين الأوروباويين ليدفع عنهم المضار المتسلطة عليهم من جهلهم كما أشرنا ويتكلم في مصالحهم، لأن كل أحد له خبرة بجنسه، حتى إذا لم يبق منه فايدة يُصرف بعد انتهاء المدة المعينة بالتي هي أحسن ويسمى غيره. أما الدولة لها النظر فيما يعرض عليها من النواب، إن شاءت تبطله أو تبقيه، والعرب يستريحون وتطمئن أنفسهم فيصرفون همتهم، إذ ذاك إلا في إتقان أعمالهم، وتسعد الرعية وتكثر المجابي ويسهل خلاصها. فعلى هذا المنوال يستحق للدولة الفرنساوية مشاركة أمة العرب في الأمور كالأوروباويين، وتجعل لها طريقا للدخول معها في دواوين المشورة، ولا يظن فيهم أنهم ينكرون معاشرة الإفرنج ويكرهون حدوث القربى في وسط بلادهم المتسعة، بل عندهم سرور بمخالطتهم لوجوه شتى، منها وجود ما يحتاج إليه العرب عندهم الإقتراء بأعمالهم المتقنة في خدمة الأرض كما أشرنا، ومنها إجراء المعاملات بينهم بالمراضاة والنصيحة الخيرية لبعضهم بعضا، فهم في نعمة شاملة وخير كامل، هذا ما يتعدى على الآخر بخيانة أو جسارة، حتى لو قيل للعرب الذين طالت عشرتهم مع الإفرنج فارطا، أنهم يفرغون قراهم ويرتحلون

من وُسْطِهم كما رضوا بذلك لحسن المعاشرة بينهم وتآلفهم، لكن اليوم حل بالعرب مضرات يشكون منها عند حدوث الكميسيون[31] المتفق على شراء بلادهم لحروث القرى وفلاحي الأوراباويين.

أولا: تقويم البلد بالثمن البخس.

ثانيا: الوعد لطايل بتنجيز الثمن المشتراة به الأرض.

ثالثا: تضييق العرب باتخاذ الكثير من أرضهم دون تاويل ولا مبالاة بهم.

رابعا: التزام العرب كراء الأرض الزايدة عن ما يحتاج إليه الكولون بثمن أبلغ من قيمة الشراء لتضييقهم، أما العرب يقولون هذا عين الغبن ونوع من الجبر، والكولون بقولون هذا شراء بالمراضاة وفي الحقيقة أين المراضاة في ذلك، وهم لا يحضرون البيع ولا يعلمون بما اتفقت عليه الجماعة المعينة لاتخاذ الأراضي. حتى يقال لهم بلادكم احتوى عليها البايلك، ومن المعلوم أن لفظة المراضاة تطلق على رضى الجانبين، بحيث أن الشاري يقصد البايع مثلا ويشتري منه بالقيمة المتفق عليها معا، هذا شرط المراضاة، وإلا فما هو إلا غبن صريح. نعم ومن الناس من لا يملك غير شيء قليل من الأرض قدر معيشة عياله فقط، فيدخل في الحملة وتنزع بلاده منه فيصبح عاريا من الحراثة التي هي حرفته أبا عن جد، ويصير ميّتا لم يُغير هذا مما يؤدي إلى خراب العرب وهرجهم، فلو اطلعتم أيها السادات على القرى التي حرفت فارطا في وسط العرب، بالتاويل الذي لا مضرة فيه للعرب ولا للإفرنج، واطلعتم على ما هو حادث الآن، لتحقق عندكم صدق كلامنا وعلمتم ما الفرق بين من أراد حيازة الدار كلها وطرد

[31] Les Commissions

رب المكان منها، وبين من أخذ مسكنا قدر المستقر وأحسن المجاورة. وليس ما ذكرناه وألقيناه على مسامعكم الشريفة هو كذب وافتراء اتخذناه من رؤوسنا، أو سمعناه بالأذن بل شهدناه عيانا كمشاهدتنا لفرنسا وعجايبها، ونقدر على تبيينه إن شئتم، أفلا تكن مصالح العرب الذين عددهم يشتمل على نحو الثلاثة ملايين، تستحق النظر أكثر من مصالح الأوروباويين، الذين عددهم يشتمل على نحو الميئتا وعشرون ألفا، وبأي وجه يحرم التماس النواب منهم للإستيشار معهم في المصالح العمومية، إن كانوا في رفقة الأخوة والمساواة كما هو الزعم.

هذا ما نعرضه على سادات فرنسة وجمهوريتها، المسئولون من الله عن رعيتها لا محالة، والمرجو منهم التأمل في جميع ما أشرنا به عليهم، فالشريعة تسمح من أذنين والحق أحق أن يتبع وفي هذا القدر كفاية، لمن وعى وسمع وبالله سبحانه التوفيق.

المخطوط : الصفحة رقم 3.

٣

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله الذي خلق الانسان من كيف وصوره
في احسن تقويم وشرفه بنور العقل فهداه الى
صراط مستقيم خلق الخلائق واحصاهم
عددا وقسم الارزاق بينهم فلم ينس احدا
احمده حمد من عرف قدره واستبصر ببصره
فخاف ربه يوم الوعيد وعن الغير نهاها فنهى
ونهى النفس عن الهوى وحاسبها والى سواء
السبيل ارشدها واصلي واسلم على من ارسله
الله رحمة للعالمين سيدنا محمد النبي الصادق
الامين وعلى آله واصحابه وجميع الانبياء
والمرسلين

وبعد لما تعلق القلب بزيارة فرنسة
مرة ثالثة واشتاقت النفس للتمتع برؤية تلك
المآثر العظيمة والامصار والمعاهد والبساتين

المخطوط : الصفحة رقم**8**.

٨

له السير الكما نرانت مونيي بغفر كانوا لنا سببا
في اغتنامنا هذه الفرصة لمعرفة رجال فرنسة
وواسطة في التشرف بزيارتهم والجلوس على
موايدهم وتمتعت ابصارنا بمشاهدة ما لم كنا
نعرفه وتعففنا بما كنا نجهله ولبس الخبر كالعيان
هذا ولنرجع لما كنا بصدده وكلما مررنا
بمدينة وقرية من مرسيلية الى باريس الاّ ورأينا على
حيطانها كتابة غليظة كقوايم الابل يستخرجها
الاعمش من بعيد فضلا عن صحيح البصر لم نعرف
حقيقتها فسالنا عنها فيل لنا هي ثلاث كلمات

ليبرطي اقاليطي فرطرنيطي

اعني الحرية والاخوة والمساواة
فيا لها من كلمات يحق ان تكتب بماء الذهب ويا ليت
الناس يعرف قدرها ويعلم ما ضمنته من المعاني
وحقيق ان الخير مجموع فيها ان عمل بها فلما
استفسرناها وتاملناها ازدادت قلوبنا تعلقا

الفهرس